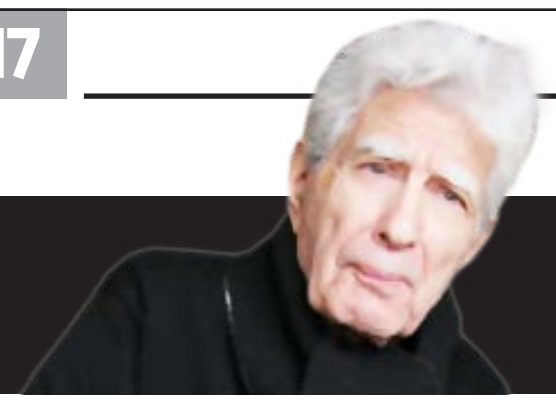

رحيل محمود صبري

محمود صبري

جدل الفكر والمواقف الجريئة

صلاح عباس

قبل سنتين تسنت لي فرصة التحدث هاتفيا مع الفنان محمود صبري الذي غادر العراق إلى موسكو سنة ١٩٦١ لدراسة الفن وبعدها انتقل إلى براغ فانتخب سكرتيرا للجنة الدفاع عن حرية الشعب العراقي بعد ان انهارت الجمهورية الأولى سنة ١٩٦٣، وكان حديثنا عن صورة فوتوغرافية له يصافح فيها ملك العراق فيصل الثاني كنا قد نشرناها في مجلة تشكيل كغلاف رابع ، إلا انه أنكر هذه الصورة نافيا أن يكون قد التقى بملك العراق الذي يمثل اكبر رمز للعمالة الانكليزية بحسب وصف محمود صبري وادعى ان هذه الصورة مصنعة بأحد برامج الحاسوب وهذا يسيء إليه وهو لن يسمح بالإساءة أبدا .

وبصراحة انتابني شعور بالريبة والخجل وحبست هذه المعلومة في سري لأنها قد تثير مشاكل لا طائل منها ولكنني أثق بالرجل الذي زودني بهذه الصورة وهو الفنان الخطاط طه البستاني واتصلت به فورا استعلم منه حقيقة هذه الصورة فقال انه حصل عليها من بنت أخته وهي دكتورة وصيدلانية ، وشاءت الصدف أن التقي بالأستاذ حمدي التكمجي المقيم في عمان وأعطيته نسخة من مجلة تشكيل ففرح كثيرا وعلق على صورة محمود صبري مع الملك بأنها أروع صورة وقال نعم انه التقى بملك العراق فيصل الثاني سنة ١٩٥٦ وحكى لي عن مواقف كثيرة لمحمود صبري بينها ، ان محمود صبري نشر مقالا في احد أعداد مجلة الثقافة الجديدة في سنة ١٩٥٧ عن جواد سليم ومشاركته في المعرض الذي أقامته السفارة البريطانية ببغداد متحدثا عن جواد بكلام خشن ولاذع لأنه شارك في معرض أقامته السفارة البريطانية التي تعتبر بؤرة للعمالة والجاسوسية في حين بين مواقف جواد سليم الوطنية وليس بالضرورة ان ينخرط في تيه عالم لا ينتسب إليه ، وبحسب محمود التكمجي ، فإن جواد سليم حين قرأ المقال بكى كثيرا وتساءل بأن الاشتغال على الفن والمشاركة في المعارض شيء والمواقف السياسية شيء آخر .

لقد عرف عن محمود صبري انه كان من ابرز المثقفين في العراق وله خوض في مجالات علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والفن ومنذ سنة ١٩٥٢ انضم إلى جماعة بغداد للفن الحديث التي تزعمها جواد سليم ولعب دورا رياديا في التأسيس الفني رؤية وتنظيرا وإبداعا فنيا متقدما فكان يعنى بالرسم التعبيري المسوغ بالرموز المتماسة مع المواقف الجريئة المتوافقة مع خصائص المجتمع العراقي فجسد أعمالا عن أهمية التضامن الاجتماعي بين فئات المجتمع ، العامل والفلاح الطبيب والمهندس المرأة والرجل إلام والطفل وسوى ذلك وجاءت أعماله الفنية محملة بالمستوى المتقدم في الأداءين اللوني والخطي ، ومغزى التضحية بالنفس في سبيل قضية عامة وأنجز سلسلة من اللوحات تحت عنوان نعش الشهيد مجد فيها مفهوم الشهادة كما أن الفنان أنجز مجموعة فنية رائدة عن أحداث البلاد بعد سقوط جمهورية عبد الكريم قاسم ونفذها بطريقة الليثوغراف أي الطباعة الحجرية وكانت عبارة عن تخطيطات بقلم الرصاص راعى فيها قيم الفن التخطيطي وابتكر لها أشكالا تستند إلى قواعد الضبط في التصميم وتحفى بقيم الموضوعات المثيرة ومن خلال هذه السلسلة من الرسومات الورقية فانه صنع شيئا مهما لتاريخ السياسة للعراق وكذلك لتاريخ الرسم العراقي المعاصر وعند تتبع مسارات الأصداء المترددة عن هذه الرسومات فأننا نجد أن الفنانين حميد عبد الحسين وإبراهيم رشيد وهناء مال الله نهلوا من عطاءات محمود صبري لاسيما في رسوماته التخطيطية المنفذة بطريقة الليثوغراف محققين غايات إبداعية جديدة دخلت بجدارة في تاريخ الرسم العراقي المعاصر.

إن تصفح سفر محمود صبري يفضي إلى عالم الوفاء والإخلاص لقضايا البلاد ويؤكد المواقف النبيلة للفنان في الحقب الزمنية المختلفة فقد تضامن مع الشعب الجزائري وأنجز سلسلة من الأعمال الفنية الممجدة لثورة الشعب الجزائري في كفاحه العنيد ضد الاستعمار الفرنسي فكانت لوحته (ثورة الجزائر) تمثل خلاصة رائدة واشتقاقا مهما من الحداثات العالمية ومما يقال عن هذه اللوحة أن بيكاسو شاهدها معروضة في باريس فأعجب بها.

وفي مطلع العقد السابع أنهك الفنان لتأسيس منهج فني جديد وسبل انجاز جديدة ألا وهي (واقعية الكم) التي أثارت زوبعة في حينها ولم تزل أصداؤها تتردد لحد الآن فالمنهج الذي أسسه محمود صبري مجترحا من المعطيات العلمية الجديدة ومشاركة ذلك في انجاز الأعمال الفنية وكانت بينه وبين قتيبة الشيخ نوري مراسلات عن آفاق هذه التجربة التي شدت الانتباه إلى كون الإنسان يتشكل من مجموعة كبيرة من العناصر والمواد الداخلة في بناه التكوينية وعلى ذلك فإن المنعطفات الحسية والعقلية للإنسان تتأثر حتما بمناسيب المواد المتكون منها وعلى هذا الأساس فإن تحصيل الحاصل لهذا المنطلق النظري أدى إلى إنتاج سلسلة رائعة من الأعمال الفنية المجردة هندسيا وهي عبارة عن أشرطة لونية تتجاور وتلتصق فيما بينها لتشكل تكوينا منظما ومعبرا عن الحالات الإنسانية المختلفة ولقد أشارت الناقدة بديعة أمين في كتابها الموسوم (المعنى والرؤية) في مقالة لها بعنوان " واقعية الكم في متاهة اللامرئيات" ان هذه الواقعية الجديدة لها سحرها الأخاذ من خلال فخامة الفكر المخبوء بين ثناياها وفي هذا السياق فإن للفنان وليد شيت وجهة نظر أخرى نشرها في احد أعداد مجلة تشكيل قال فيه " إن واقعية الكم لا تنتسب للفن بل تنتسب للمختبرات العلمية وذلك في رد على الشاعر صادق الصائغ الذي أكد بإصرار انتساب واقعية الكم إلى المناهج الفنية الحديثة ليس في العراق وحده بل وفي العالم أيضا .

إن حياة محمود صبري حافلة بالبحوث والتنظير مسوغة بالعطاءات الإبداعية الثرة وحتى وان تباينت وجهات النظر في أفكاره ومنطلقاته النظرية وفي تجاربه الفنية فإنه يبقى علامة فارقة في تاريخ الفن العراقي المعاصر انه الفنان الدؤوب الباحث بعقل مفكر وشعور انساني مرهف لقد بحث في المغزى الجوهري للانسان ونوازعه

انا ومحمود صبري

رفعت الجادرجي

كنا نذهب إلى دار فائق حسن، و قد استصحب كل منا معه شيئاً من المأكولات و الكحول.

كانت نقاشاتنا تتشعب، فنسترسل و نستطرد، و تطول الأحاديث و تتكرر الفكاهات، لكن الوضع كله فيه كثير من الجدية و الإخلاص. كان محمود صبري قد أقام معرضاً لرسومه، فعرض لوحات ذات مواضيع سياسية منها السجين. كان النقاش يتناول موضوع الفن. و هل يجوز إقحام مواضيع سياسية في الرسم أو الفن أصلاً؟

كان جواد يرتاد هذه الاجتماعات قليلاً غير أن موقفه واضح يتلخص بأن الفن يجب أن يكون بعيداً عن السياسة، و ان الفن يجب أن يتطور نحو تكتيك معاصر، على أن لا ضير أن يكون له طابع عراقي بشرط أن يبتعد عن الرسالة الاجتماعية و إلا أصبح سياسياً و فقد وظيفته الفنية و صار عبارة عن ممارسة سياسية.

و كانت حجة محمود صبري و قتيبة الشيخ نوري بشأن هذا الموضوع تتلخص بأن كل عمل أو ممارسة يكون الفنان يدري أو لا يدري أن له دوراً سياسياً و سواء شاء الفنان أم أبى. و عليه يجب أن يتوفر لديه الوعي ليقوم بمساهمة تناسبه. أما أنا فكنت أقول أن للفن وظيفة اجتماعية لا يمكن تجنبها، و لذا على الفنان أن يكون مدركاً ليتخذ الموقف المناسب شريطة ألا ينزلق و ينجرف و يتناسى الناحية التقنية، فيصبح عمله سياسياً. و قد وجدت موقفي أقرب إلى نظرة محمود صبري، لذا تطور بيننا وئام فكري، فأصبحنا صديقين. محمود صبري شاب طويل، رشيق القامة وسيم الوجه، خافت الصوت و قليل الكلام، و إذا تكلم أو أنصت ابتسم. وديع و لكنه إذا حمى وطيس الحديث، أو إذا جرى المساس بأي شكل من الاشكال بالحركة التقدمية، فإن محمود الوديع هذا يتحول عند الاقتضاء إلى شخص آخر. و هو حتى في هذه الحالة لا يثور ثورة طائشة بل لا تخلو عبارته من القسوة و الحدة و من الحدية الدفينة في أعماقه.

كان توجيه الفن نحو المساهمة في الحركة التقدمية بحيث يصبح جزءاً منها هو بالنسبة لمحمود هدف لا نقاش فيه. كان هذا موقف محمود على الصعيد السياسي. أما على الصعيد الفني فلم يكن محمود بنظر جواد و فائق أكثر من هاو و مبتدئ، إن تكنيكه في الرسم و الألوان و التكوين ضعيف و من أعمال الناشئين. و لكنه كان أول من هز بحق الفن العراقي هزة الإيقاظ من سباته في الرومانتيكية الريفية.

كان محمود موظفاً في مصرف، و اتخذ من الفن هواية له يقضي به أوقات فراغه. سرعان ما تطور الأمر لديه، فبدأت هواية الرسم تحل محل الفعاليات الأخرى و أخذت تشغل عليه تفكيره و وقته حتى أصبح عمله في البنك، بل حياته العامة و الخاصة، شيئاً ثانوياً، و ليس سوى متمم لما كان يزاوله في عالم الرسم. صار محمود يواصل الرسم دون انقطاع في الأمسيات، و يستمر إلى وقت متأخر من الليل حتى تنهك قواه، و هو شخص لا يتعب سريعاً. فتقدم تكنيكه و تطور، بدأ عمل محمود و موقفه من الفن يؤثر في الفنانين الآخرين من حيث يعلمون أو لا يعلمون، و أخذ يقودهم نحو قناة جديدة من فن يعكس حياة اجتماعية ذات واقعية معينة بل ذات صبغة خاصة هي صبغة الثورة العمالية الفلاحية كما يتصورها محمود نفسه. و أخذ الفنانون الآخرون، بادراك منهم لهذا الاتجاه أم بدونه، يعملون ضمن فن واقعي ذي صبغة معينة. و قد تجلى هذا بعد ذلك في أعمال فائق في مواضيع مثل بيوت الشعر و الأعراب في مضاربهم و الأعرابي مع دلة القهوة و الأعرابيات الساذجات. و تجلى كذلك في أعمال جواد في مواضيعه البغدادية مثل "البغداديات" و "ليلة الحنة" و "القيلولة" و في عمل زيد صالح في الحصان العربي. أما في عمل محمود صبري فنجد العامل بعضلات منتفخة تكاد تتفجر حيوية، و الفلاح النحيل الطويل و هو يتوجس بانتظار مصير آخر في عهد جديد.

هكذا تطور الفن في العراق في منتصف الخمسينات، و كان التطور حصيلة عوامل كثيرة منها تطلعات جواد في الفن القديم و لو بصفة المشاهد المحلي للأحداث دون مساهمة فعلية فيها. و لكن الأكيد هو أن لمحمود صبري قسطاً كبيراً في دفع الفن نحو اتخاذ سمة و طابع و مفهوم يعكس واقعاً اجتماعياً- سياسياً هو في طور التأهب للتغيير. و لم يقتصر الأمر على تأثير محمود بالفن، بل أثر كثير من الفنانين العراقيين في محمود بصورة متبادلة، حتى انقلب فنه من ذلك النوع الهاوي، الواهن تكنيكيا، إلى فن متمرس له طابعه المتميز و خوصيته الفذة.

ماذا كان الوضع قبل محمود صبري؟ كان الفن يدور حول مواضيع ريفية، فإذا ما خرج عن هذا النطاق فإنه يعالج صور الأشخاص "البورتريت" فيما عدا جواد

مقتطفة من كتاب (الأخيضر و القصر البلوري) الذي كتبه رفعة الجادرجي في سجن ابو غريب ١٩٨٠

شهادات

قتيبة الجنابي: كشفت عن غربة الفنان ووحشته

المخرج السينمائي قتيبة الجنابي تحدّث عن حيثيات فيلم عن الفنان محمود صبري وعن كيفية خلق الفكرة، في هذا الجهد المقصود واللامقصود في تصوير الفيلم، وقال: كانت الفكرة إنتاج وإخراج فيلم وثائقي، وقد عشنا مع الفنان مدة أسبوعين في براغ، كانت هناك حوارات، وكنا قريبين من بيته، ولا اعرف كيف كنت اعمل عكس ما طلبه مني الفنان التشكيلي فصيل لعيبي، وقد عملت ما أريده أنا، والكلام عن نظرية الكم التي يعمل بموجبها الفنان صبري في مشغله التشكيلي ومبتغاه الإبداعي، وهي نظرية أو عملية مزج الألوان، وهي أن تذهب إلى مصدر اللون، مثلا لو يرسم التفاحة، يذهب إلى (ذبيبات التفاحة) ويرسم اللون الأحمر أو لون الموزة الصفراء، وهذه بلا وسائل إيضاحية والكترونية، وبعد تصوير مئة ساعة، استطعت أن احصل على ١٧ دقيقة، للكشف عن غربة هذا الفنان ووحشته، وصدقوني ربما هو لا يعرف طرق وشوارع (براغ) ولا يعي الأشياء التي من حوله، ولو تلاحظون في المشاهد الأولى من الفيلم يبدو شبه ضائع بلا قصدية، ومن هنا بدأت فكرة الفيلم بالنسبة لي كما يبدو له علاقة بالمكان، بيته كالمعبد، هو فقط إلى عالمه الخاص، رجل لا يمتلك تلفزيونا ولا انترنت فقط علاقته بالراديو والموسيقى الكلاسيكية وإذاعة BBC العربية، هو في بحث دائم في متحف بيته، أتمنى أن يكون هذا البيت متحفا وأعماله تصل إلى العراق حتى تتحول إلى متحف.

صادق الصائغ: واقعية لها نكهة وطعم خاص

قد يختلف الناس والنقاد على الأخص في تقييم أعمال محمود صبري وخاصة تجربته الأخيرة في مجال واقعية الكم، لكن الجميع يتفق بشكل تام على أن محمود صبري يشكل احد الأعمدة التراثية الأساسية في التراث الوطني العراقي والعربي. هو مؤسس ورائد ويرتبط اسمه وثيق الصلة باسم آخر هو جواد سليم. وإبداع محمود صبري في الفن التشكيلي العراقي له تاريخ طويل وممتد ويشمل حقلين أساسيين: حقل النظرية وحقل التطبيق أيضا أي الحقل التشكيلي نفسه.

محمود من أوائل الفنانين العرب الذين كتبوا بعمق في حقل النظرية وأسسوا في العراق والبلدان العربية ، الوعي التشكيلي المؤثر الذي استطاع فيما بعد أن يؤثر ليس على جيله فقط وإنما أن يكون بمثابة رسالة مهمة لها أبعاد تتجاوز المرحلة التي يعيش فيها الرسام ويتجاوز القيمة المتحفية إلى قيمة التفاعل والاستمرارية في حياة الشعب العراقي والفنانين التشكيليين والوعي بشكل عام. الوعي التشكيلي العراقي. كما أن رسوماته كانت وستبقى نقطة ينتبه لها اغلب العاملين في هذا الحقل.نحن نرى أن محمود صبري في لوحاته القديمة في المرحلة الأولى من حياته ولعلها تمتد ليس بوجه الدقة من الخمسينيات تتسم بواقعية تخص محمود صبري نفسه وتتحرك ضمن واقعية عامة إلا أنها واقعية لها نكهة وطعم خاصان بمحمود صبري نفسه.

نحن نرى بحوثه التطبيقية أدت إلى بلورة متوازية مع البلورة التي أحدثها جواد سليم في موضوعات عديدة منها تركيبة الشخصية العراقية ، الميراث، الخواص، السمات التاريخية للعراقي من حضوره الماضي إلى امتداده في عمق التاريخ، نجد أن الشخصية العراقية عند محمود صبري في واقعيته القديمة متكافئة مع الشخصية التي رسمها جواد سليم إلا أنها تختلف في كونها ينعكس عليها التوتر، بينما الشخصية عند جواد سليم مسترخية، شخصية منشرحة على الأغلب، شخصية مرتاحة، لكن الشخصية العراقية التي يرسمها محمود صبري هي شخصية مليئة بالتوتر، وهذا التوتر بالحقيقة يمكن أن تسميه توترا اجتماعيا لأن الشخصية تخوض صراعا عالي المستوى، تخوض صراعاً مع نفسها ومع المجتمع الذي تعيش فيه. فهي بذلك تحمل رسالة وتبدل مجهوداً وطاقة، وهذا المجهود وهذه الطاقة تتشكل على مستوى مشاعر متعددة ومتباينة ونشعر أنها شخصيات استثنائية، شخصيات سامية، تغلبها الشفافية وطابع الشعر، وهي من الناحية الشكلية تقريبا لها استقرار فني أصيل ممكن ملاحظته في جميع الأعمال التي تعرض لها محمود صبري سواء بالنسبة إلى شخصيات الرجال أو النساء أو الأطفال ومن مختلف الأعمال أثناء نشاط الإنسان وأثناء إصلاحه الاجتماعي أو السياسي الذي قد يجد له في بعض الأحيان طابعاً سياسياً حاداً ومباشراً.

المرحلة الثانية من حياة محمود صبري هي في رأيي اخطر بكثير هي مرحلة واقعية الكم. وهنا ينشأ الجدل وتنشأ مغامرة جديدة ليست مضمونة لمحمود صبري، لكن محمود صبري يراهن عليها بكل ما يمتلك من يقين، لأن المراهنات تعقد على المصادفات لكن محمود صبري يراهن هنا بكل وعيه ويقينه، ويدخل هذه المغامرة بصرف النظر عن المحصول الفني الذي تراكم أثناء عمله الفني.

غائب طعمة فرمان: مبدعاً في جميع اعماله

تعرفت على محمود صبري كفنان قبل أن أتعرف عليه كانسان وكنت من ضمن الذين شاهدوا معرض الرواد الذي احدث ضجة فنية كبيرة وقتها، كان ذلك عام ١٩٥٠، وقد صادف في الوقت نفسه أني كنت ابحث عن رسام مبدع ليصمم غلافا لكتابي الأول "حصيد الراحة" فزرت محمود صبري في مكان عملة مصرف الرافدين، وفعلا لبى رغبتي ورسم صورة رائعة وهى في الحقيقة طبق الأصل أو مستوحاة بصدق من قصص الكتاب.

بعد ذلك تطورت وتوثقت بيننا العلاقة واشتركنا في اجتماعات عديدة ناقشنا فيها مختلف المواضيع الفنية والاجتماعية وما إلى ذلك من المواضيع ذات الاهتمام المشترك. الحقيقة إن اللقاء مع محمود صبري ممتع جدا ومتعدد الجوانب وفي عام ١٩٥١ كان لنا لقاء عمل آخر مشترك حيث اخرج غلاف كتابي الثاني "مولود آخر". وهكذا كان محمود صبري مبدعا في جميع أعماله ولا أريد أن أنسى ذكر عمله في روايتي "خمسة أصوات" حيث وفق في إبراز خمسة وجوه للمثقفين وربما يكون محمود صبري واحدا منهم.